سيد قطب ومعالم في الطريق

-٢-

الأخ عصام العطار

{رغب إلينا عدد كبير من الشباب في أن نعيد نشر المقالات التي كتبها الأخ عصام العطار في جريدة المجتمع اللبنانية عن سيد قطب ومعالم في الطريق آخر سنة ١٩٦٥م وأول سنة ١٩٦٦م .. والتي توقفت باضطرار الأخ عصام العطار إلى الخروج من لبنان في تلك الظروف المعروفة للقراء .

ويسر (الرائد) أن تستجيب لهذه الرغبة وأن تعيد نشر هذه المقالات التاريخية التي نشرت ما بين اعتقال سيد واستـــشهاده رحمه الله ، وكان لنشرها ما كان من نتائج وآثار .
ويعاد نشر هذه المقالات الآن وقد مضى على استشهاد سيد قطب رحمه الله ثمان سنوات} .

٢- هل من الصحيح أن سيد قطب قد دعا في كتابه (معالم في الطريق) إلى إلغاء التقدم المادي والصناعي ، والقضاء على المعارف العلمية التي أنشأت هذا التقدم ؟ ..

إننا هنا أيضاً أمام زعم لا يمكن أن يصدق بحال من الأحوال ، بل هو أدعى من سابقه إلى التكذيب والإنكـــار ، فما من مسلم قرأ كتاب الله عزَّ وجلَّ إلاّ ورأى فيه دعوة إلى النظر والتفكر والبحث ، وإلى استخدام الحواس والعقل وسائر ما وهب الله من ملكات وإمكانات في الوصول إلى الحقائق ، وفي التعرف إلى سنن الله في الكـــون والحيـــاة والمجتمعات .

وما من مسلم قرأ كتاب الله إلاّ وفهم أن الله تعالى قد استخلف الإنسان في الأرض دون ســـائر المخلوقـــات ، وسخر له ما في السموات والأرض جميعاً منه ، وأعطاه ما يؤهله للخلافة ، من المعرفة ، والقـــدرة علـــى الإبـــداع والإنشاء والتعمير والتقدم ، والاستفادة مما سخر له من هذا الكون الكبير .

وما من مسلم ألمّ بشيء يسير من أحكام إسلامه إلاّ وعرف بأن من التقدم المادي والصناعي ، ومن العلوم الـــتي أنشأته ، ما هو فرض كفاية ، إن نهض به البعض سقط عن الكل ، وإن تركه الجميع أثم الجميع ..

وما من مسلم اتصل بتاريخه الماضي إلاّ وأبصر فيه أمثلة نادرة للعلماء في مختلف المجالات ، ونماذج رائعة للأبحاث والدراسات ، وصوراً بارعة لازدهار المعارف والعلوم والفنون ، وشواهد بيّنة على التقدم المادي والصناعي ، في ظل

الإسلام العظيم ، وبأمره أو بتوجيهه ورعايته ، مما يعترف به المؤرخون المنصفون ، ولا ينكره إلاّ جاهــل ، أو لئــيم حاقد ، لا يقام له اعتبار ولا وزن ..

❍ ❍ ❍

ولكن التقدم المادي والصناعي -مع ذلك- يثير مشكلات خطيرة تحتاج إلى التفكير والعلاج الجــادّ المــسؤول ، ويضع البشر على حافة الهاوية أو على أبواب مستقبل عظيم .

إنّ هذا التقدم لم يلازمه -مع الأسف- تقدم روحي وفكري وخلقي مماثل ، يضبطه ، ويوجهه دائماً للخــير لا للشر ، ولمصلحة البشر لا للإضرار بهم ، ولم يواكبه تقدم في التنظيم ، يكفل وضع الأمور في مواضعها ، ويمنع طغيان دولة على دولة ، أو طبقة على طبقة ، أو أفراد على مجتمع ، أو مجتمع على أفراد .. ويحقق لكلٍ الحريــة والكرامــة والعدالة والخير .

هذا التقدم المادي والصناعي الذي لم تحكمه قيم عليا ، ولم ينطلق ضمن منهج إنساني شامل قويم ، قــد كــان أحياناً كثيرة أداة في أيدي الأهواء والشهوات ، ومطامع الدول والطبقات والأفراد ، وقد نشأ عنه كثير من الــشرور والمآسي والأخطار ، وارتبط بألوان من الاستعمار ، والاستغلال ، والفتك الوحشي ، تولدت عنه ، أو نمت بــه ، أو أعان عليها بما لم يكن قبل من وسائل ..

ولقد استخدم في الحروب ، كما أدى هو نفسه أيضاً إلى الحروب ، فكان أداة دمار رهيبة بدل أن يكون أداة بناء وامتدت به رقعة الحرب حتى شملت العالم مرتين ، واتسع به ما يصيب العالم من الويلات والخراب ..

وازداد التقدم المادي والصناعي ازدياداً هائلاً ، ولم يزدد التقدم المعنوي ، ولم تجد البشرية طريقها القويم ..

واخترعت القنبلة الذرية ، والقنبلة الهدروجينية ، والصواريخ العابرة للقارات ، ومراكب الفضاء تــدور حــول الأرض ..

وبقي القياد بأيدي الشهوات ، والأنانيات ، والعصبيات ، والمطامع الفردية والجماعية ، والمذاهب النفعية والمادية على اختلاف الصور والألوان .

وها هو ذا العالم يموج اليوم بالفتن والحروب والمظالم والفظائع والمآسي ، ويقف على شفا الدمار ، أمام احتمــال حرب عالمية ثالثة ، لا تبقي ولا تذر ، ولا يمسكه عنها إلا (توازن الرعب) الذري الرهيب ، لا الإيمان بالقيم العليا ، والحرص المجرد على السلام والخير المشترك لبني الإنسان .

هل معنى ذلك أن علينا أن نلغي التقدم المادي والصناعي ، وأن نقضي على المعارف التي أنشأت هذا التقدم ؟

كلا ، فالمعرفة لا بد منها ، والتقدم المادي والصناعي لا غنى عنه لتقدم الإنسان ، وخـــيره ، وتحقيـــق أهدافـــه السامية ، والنهوض بمتطلبات الخلافة في الأرض . وإنّ الجوانب الإيجابية من هذا التقدم لجديرة بكل ما يبـــذل فيهـــا ويحتمل من أجلها ..

التقدم المادي والصناعي ضروري للحياة على هذه الأرض ، ومكسب كبير للبشر ..

ولكننا نحتاج معه إلى التقدم الروحي والفكري ، وإلى القيم العليا التي تحكمه ..

لقد جعل التقدم المادي قدرة الخير والشر أكبر كثيراً مما هي عليه ، وأعطى الإنسان من وسائل الحياة والمـــوت ، وأسباب العمار والدمار ، ما لم يكن يفكر فيه أو يخطر له ببال ، وغدا في كوكبنا الذي نعيش عليه قوة هائلة ، إما أن يحكمها الحق والعقل والخلق والضمير فتكون أداة خير عميم عظيم ، وإما أن يحكمها الطاغوت فتكون أداة شر مـــا بعده شر .

وليس السؤال في قضية التقدم العلمي والمادي والصناعي ومستقبل البشر معه ، أن يكون هذا التقدم أو لا يكون ، فهو كائن على كل حال ، ولكن السؤال المطروح هو : هل يكون هذا التقدم لخير البـــشر وبقـــائهم ، أم يكـــون لهلاكهم وفنائهم ؟ .

إن كنا نريده لخير البشر وبقائهم فعلينا ألا نتركه كالمارد المجنون ، أو أداة بأيدي أعداء الإنسان ، من أصـــحاب الضمائر الخربة ، والغرائز المسعورة ، والجشع الذي لا يشبع ، تسخره كما تريد للفساد ، وتدفع العالم به للدمار .

لا بد لنا –إن أردنا السلامة لأنفسنا وعالمنا– من قيم عليا تهيمن على تقدمنا المادي والصناعي .

ولا بد لنا من منهج شامل عادل ينمو في ظله هذا التقدم ويزداد ، ويحقق للبشر ضمن حدوده ما يتطلعون إليه ..

ونحن نؤمن أرسخ الإيمان بأن الإسلام هو الذي يستطيع أن يقدم للبشر هذه القيم وهذا المنهج .

إننا في عالمنا هذه الأيام على الخصوص ، وفي سائر الأيام ، بأمس الحاجة إلى الإسلام ، عقيدةً في الله عزَّ وجـــلَّ ترفع الإنسان إلى فوق ، وتجعل له هدفاً أسمى من الأهواء والشهوات ، ونزوات النفس ، ومطالـــب الحـــس ، الـــتي يتطاحن عليها الناس .

وبحاجة إلى الإسلام منهجاً رسمه خالق الإنسان ، وخالق الكون والحياة ، ليعيش به الإنسان في سلام مع نفسه ، ومع مجتمعه ، ومع الكون كله .. منهجاً عالمياً عميقاً شاملاً ، لا يحابي أحداً على أحد ، ولا يجسم مـــصلحة ضـــد

مصلحة ، ولا يلبي حاجة دون حاجة ، ولا ينظر إلى جانب من الحياة دون جانب ، ولا يعــنى بالحاضــر ويهمــل المستقبل .. منهجاً يزيد في تقدم الإنسان المادي والصناعي ، ولكنه يضبط هذا التقدم ، ويجعله في خدمــة أهدافــه العليا ، ويؤلف بينه وبين ضروب نشاطه ومصالحه الأخرى .. وبذلك يكون هذا التقدم كلــه للإنــسان لا علــى الإنسان : لسعادته لا لشقائه ، ولإنصافه لا لظلمه ، ولحريته لا لعبوديتــه ، ولكرامتــه لا لهوانــه ، ولمــساعدته لا لاستغلاله ، ولارتقائه لا للهبوط به ، ولدنياه ولآخرته على السواء .. ويكون هذا التقدم -بالإسلام- في حياة البشر كلها ، للعمار لا للدمار ، وللصلاح لا للفساد ، وللحياة لا للموت ..

والآن هيا بنا إلى سيد قطب في (معالم في الطريق) ، فهذا الذي أقوله هنا هو ما يقوله الكاتب العظيم هناك .

وسيجد كل القراء -من خصوم وأصدقاء- فيما سأنقله من (المعالم) وجه الحق أجلى ما يكون ، وكــذب مــا يرجف به المرجفون ، ويفتريه المفترون عندما يدّعون أن سيد قطب يدعو إلى إلغاء التقدم المادي والصناعي ، والقضاء على المعارف التي أنشأت هذا التقدم ! ..

يقول سيد قطب :

(تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية .. لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها .. فهذا عرض للمرض وليس هو المرض .. ولكن بسبب إفلاسها في عالم (القيم) التي يمكن أن تنمو الحياة الإنسانية في ظلالها نمواً سليماً وتترقــى ترقياً صحيحا) - ص ٣ -

{لا بد من قيادة للبشرية جديدة !

إنّ قيادة الرجل الغربي للبشرية قد أوشكت على الزوال .. لا لأن الحضارة الغربية قد أفلست مادياً أو ضعفت من ناحية القوة الاقتصادية والعسكرية .. ولكن لأن النظام الغربي قد انتهى دوره لأنه لم يعد يملك رصيداً مــن (القــيم) يسمح له بالقيادة .

لا بد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التي وصلت إليها البشرية ، عن طريق العبقريــة الأوروبيــة في الإبداع المادي ، وتزود البشرية بقيم جديدة جدّة كاملة -بالقياس إلى ما عرفته البشرية- وبمنــهج أصــيل وإيجــابي وواقعي في الوقت ذاته .

والإسلام -وحده- هو الذي يملك تلك القيم وهذا المنهج} - ص٤ -

{جاء دور الإسلام الذي لا يتنكر للإبداع المادي في الأرض ، لأنه يعدّه من وظيفة الإنسان الأولى منذ أن عهــد الله إليه بالخلافة في الأرض ، ويعتبره -تحت شروط خاصة- عبادة لله ، وتحقيقاً لغاية الوجود الإنساني} . - ص٥ -

{لا بد إذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية –غير الإبداع المادي– ولن يكون هذا المؤهل سوى (العقيدة) و(المنهج) الذي يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج العبقرية المادية ، تحت إشراف تصور آخر يلبي حاجة الفطرة كما يلبيها الإبداع المادي ، وأن تتمثل العقيدة والمنهج في تجمع إنساني ، أي في مجتمع مسلم} – ص ٨-٩ –

{كذلك يتحقق الخير للبشرية عن طريق اهتدائها وتعرفها في يسر إلى أسرار هذا الكون ، والطاقات المكنونة فيه ، والكنوز المذخورة في أطوائه . واستخدام هذا كله وفق شريعة الله ، لتحقيق الخير البشري العام ، بـــلا تعـــارض ولا اصطدام} – ص ١٣٦ –

{إنّ المجتمع المتحضر .. الإسلامي لا يحتقر المادة –لا في الصورة النظرية (باعتبارها هي التي يتألف منـــها هـــذا الكون الذي نعيش فيه ونتأثر به ونؤثر فيه أيضاً) ولا في صورة (الإنتاج المادي) .. فالإنتاج المادي مـــن مقومـــات الخلافة في الأرض عن الله – ولكنه فقط لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهـــدر في ســـبيلها خـــصائص (الإنـــسان) ومقوماته .. وتهدر من أجله حرية الفرد وكرامته .. وتهدر فيها قاعدة (الأسرة) ومقوماتها .. وتهدر فيهـــا أخـــلاق المجتمع وحرماته .. إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقق الوفرة في الإنتاج المادي !

وحين تكون (القيم الإنسانية) و(الأخلاق الإنسانية) التي تقوم عليها ، هي السائدة في مجتمع ، يكون هذا المجتمع متحضراً} . – ص ١٤٧-١٤٨ –

{حين يقوم (الإنسان) بالخلافة عن (الله) في أرضه على وجهها الصحيح : بأن يخلص عبوديته لله ويخلـــص مـــن العبودية لغيره . وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره . وأن يحكّم شريعة الله وحـــدها في حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها . وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القـــيم والأخـــلاق المدعاة . ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون المادي ، ويستخدمها في ترقية الحياة ، وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها ، وجعل تلك النواميس الكونية أختامها ، ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الأختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافة .. أي حين ينهض بالخلافـــة في الأرض على عهد الله وشرطه ، ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق ، ويصنع المادة الخامة ، ويقيم الصناعات المتنوعة ، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تاريخه كله .. حين يصبح وهو يصنع هذا كله (ربانيـــاً) يقوم بالخلافة عن الله –على هذا النحو– عبادة لله .. يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة ، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة .. فأما الإبداع المادي –وحده– فلا يسمى في الإسلام حضارة فقـــد يكـــون وتكـــون معـــه الجاهلية) . – ص ١٥٣-١٥٤ –

{الإسلام –كما أسلفنا– لا يحتقر المادة ، ولا يحتقر الإبداع المادي ، إنما هو يجعل هذا اللون من التقدم –في ظل منهج الله– نعمة من نعم الله على عباده ، يبشرهم به جزاء على طاعته} . – ص ١٥٥ –

{المهم هو القاعدة التي يقوم عليها التقدم الصناعي ، والقيم التي تسود المجتمع . والتي يتـــألف مـــن مجموعهـــا خصائص الحضارة (الإنسانية)} . – ص١٥٦ –

{المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة ، كالكيمياء ، والطبيعة ، والأحياء ، والفلك ، والطب ، والـــصناعة ، والزراعة ، وطرق الإدارة –من الناحية الفنية والإدارية البحتة– وطرق العمل الفنية ، وطرق الحرب والقتـــال –مـــن الجانب الفني– إلى آخر ما يشبه هذا النشاط .. يملك أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغـــير المـــسلم .. وإن كـــان الأصل في المجتمع المسلم حين يقوم ، أن يسعى لتوفير هذه الكفايات في هذه الحقول كلها ، باعتبارها فروض كفاية ، يجب أن يتخصص فيها أفراد منه ، وإلاّ أثم المجتمع كله إذا لم يوفر هذه الكفايات ، و لم يوفر لها الجو الذي تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج} . – ص ١٦٩ –

{الاتجاه التجريبي ، الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الأوروبية الحاضرة ، لم ينشأ ابتداء في أوروبا ، وإنما نشأ في الجامعات الإسلامية في الأندلس والمشرق ، مستمداً أصوله من التصور الإسلامي وتوجيهاته إلى الكون وطبيعتـــه الواقعية ، ومدخراته وأقواته .. ثم استقلت النهضة العلمية في أوروبا بهذا المنهج ، واستمرت تنميه وترقيه ، بينما ركد وترك نهائياً في العالم الإسلامي بسبب بعد هذا العالم تدريجياً عن الإسلام} . – ص ١٧٤ –

{إنّ العلم ليس مقصوراً على علم العقيدة والفرائض الدينية والشرائع .. فالعلم يشتمل كل شـــيء .. ويتعلـــق بالقوانين الطبيعية وتسخيرها في خلافة الأرض تعلّقه بالعقيدة والفرائض والشرائع} – ص ١٨٠ –

{ إنّ هناك ارتباطاً بين القاعدة الإيمانية وعلم الفلك ، وعلم الأحياء ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيميـــاء ، وعلـــم طبقات الأرض ، وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية ، والقوانين الحيوية .. إنها كلها تـــؤدي إلى الله ، حـــين لا يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله) – ص ١٨٠ –

❍ ❍ ❍

وهذا الفهم والتفكير عند سيد قطب ليس بالشيء العارض ولا الجديد .

إنه أصيل عنده كل الأصالة ، لأنه هو الذي يمليه الإسلام ، ويفرضه المنطق السليم على من يؤمنون بهذا الدين ..

ولو شئت لنقلت من كتب سيد الأخرى شيئاً كثيراً يدلّ على أصالة هذا الفهم والتفكير عنده ، وعلـــى عراقتـــه وتغلغله فيما يكتب ، وارتباطه بتصوره وحكمه على الأمور ..

ولكنني –وقد أطلت في القول– سأكتفي هنا بسطور خطّها قلم الكاتب البصير في مقدمته الرائعة لكتابه الخالد : (في ظلال القرآن) .

وسأجعل هذه السطور خاتمة الكلام في هذا الموضوع ، لأنها لا تبيّن رأي الكاتب فقط ، ولكنها تكشف أيــضاً عن خبث نوايا الذين يتهمونه الآن بما يتهمونه به ، ويضعون المنهج الإلهي في كفة ، والإبداع الإنساني في عالم المــادة في الكفة الأخرى ، كأنهما نقيضان لا يلتقيان ، وكأن المنهج الإلهي كما يتمثل في الإسلام ليس هو الذي ينشئ هذا الإبداع ويوجهه الوجهة الصحيحة .

قال الأخ الحبيب –فرّج الله عنه– : (لم يكن قد استشهد بعد)

{إنّ هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية . يضعون لها المنهج الإلهي في كفة والإبداع الإنــساني في عالم المادة في الكفة الأخرى ، ثم يقولون لها : اختاري ! اختاري إمّا المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كــل مــا أبدعته يد الإنسان في عالم المادة ، وإمّا الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلي عن منهج الله ! وهــذا خــداع لئــيم خبيث، فوضع المسألة ليس هكذا أبدا .. إنّ المنهج الإلهي ليس عدواً للإبداع الإنساني ، إنما هو منشئ لهذا الإبــداع وموجه له الوجهة الصحيحة .. ذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض ، هذا المقام الذي منحه الله لــه ، وأقدره عليه ، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافئ الواجب المفروض عليه فيه ، ووهبه من الطاقات المكنونــة مــا يكافئ الواجب المفروض عليه فيه ، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ، ونسق بين تكوينه وتكــوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع .. على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام ، والتقيد بشرطه في عقد الخلافة ، وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله . فأما أولئــك الــذين يضعون المنهج الإلهي في كفة ، والإبداع الإنساني في عالم المادة في كفة أخرى .. فهم ســيئو النيــة ، شــريرون ، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال ، وهمّت أن تسمع لصوت الحادي الناصــح ، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة ، وأن تطمئن إلى كنف الله} – ص ٧ –